



لوحة رقم (١١) الفنان الأمريكي جاكوب لورانس- " توبمان والأرض الموعودة "

المرحلة الأولى : التحليل الوصفي

من خلال التوقيع الذي يظهر في أسفل اللوحة من جهة اليمين يتضح أن اللوحة التي أمامنا لـ (جاكوب لورانس) ، التي تتضمن موضوع " توبمان والأرض الموعودة " ، وقد رسمها عام ١٩٦٧ م ، فعندما نوجه أنظارنا لهذه اللوحة نجد أن أعينا تشدنا من أول نظرة إلى العديد من المكونات والأشكال الفنية ، بدأ من الأوراق النباتية ذات اللون الأخضر الموجودة في أسفلها والتي تمتاز بضخامتها ، وقد بالغ الفنان في حجمها ، حيث يمكن رؤية ثلاث من الحشرات المختلفة الغريبة في ألوانها والبسيطة في أشكالها، تتسلق ثلاثاً

من أوراق الأغصان النباتية، ويوجد في منتصف العمل مساحة لونية تحمل اللون البنفسجي ، محدد باللون الأحمر يتخللها شكل قدمين حافيين تبدوان متورمتين بلون يميل إلى اللون الداكن . حيث تشكل الهالة اللونية والقدمين مركز السيادة للعمل الفني ، ومن خلف القدمين يد ربما يد نسائية من خلال ظفر الإبهام مطلي باللون الأحمر ، وهذه اليد ممسكة بقوة على زناد البندقية ، وقد امتد طول البندقية إلى خارج المساحة اللونية ذات اللون البنفسجي كرمز على النضال والكفاح ، وعند أطراف أصابع القدم اليسرى نرى أن هناك رأساً بلا جسد ووجه يتطلع إلى أفق السماء ربما ينتظر رحمة تدركه قبل الموت ، أو ربما هذا الرأس هو بقايا لإنسان محارب أو محاربة استنفذ كل قواه وحياته دون أن يتحقق له شيء يذكر، ويعلو الهالة اللونية جسد آدمي ملقى على الرمال الصفراء وهو يتوسد الذراعين ، ويريح الساق على الساق ، وساقه اليسرى موصولة بفوهة البندقية ، وهو يلبس رداء أسود اللون ، ولون بشرته يشبه لون القدمين واليدين ، والرأس - الأنف الذكر- والجسد الملقى ربما يعود لآدمية حيث القدمان مطليتان باللون الأحمر ، ويقطع هذا الجسد الممدد غصن إلى شجرة الزيتون ، ويعلو الجسد هالة لونية أخرى مكون من اللونين الأحمر والبنفسجي شكل مكور بلون يشابه الأشكال العضوية السابقة ، هذا الشكل يشبه ربما إلى شكل الجنين في رحم أمه ، ومن خلفهم تمتد الكتبان الرملية ، والسماء ذات اللون القاتم ربما أن الوقت ليلاً .

المرحلة الثانية : التحليل الشكلي

لقد عمد(لورانس) على المبالغة في شدة اللون من خلال تجاوز اللون الأزرق والأصفر ، وانسجام الأخضر مع الأصفر ، حيث هدف من ذلك شد انتباه النظر من خلال الألوان القوية ولسحر جمالها ، وكذلك لاستهداف الأحاسيس البشرية ووجدانهم ، وإيقاظ نار المشاعر في قلوبهم . أما بقية الألوان الأخرى فتبرز من خلال المساحة اللونية في منتصف العمل التي تمثل اللون البنفسجي والمحدد باللون الأحمر، كما أن أعلى اللوحة نرى اللون الأزرق واللون الأسود قد شكلا ثقلا غير معهود في الأعمال الفنية ، حيث هدف

الفنان ربما من ذلك إلى إبداع جو عام يملؤه الحزن الرقيق والأسى ، مما يجعلنا نتراوح في مشاعرنا المتأججة من الانبهار من شدة الألوان من جهة ، ونصدم بوطأة لون السماء الحالك من جهة أخرى ، ربما أنه انقلاب الموازين بين علاقة ضوء ، والظلمة ، وبين الأرض ، والسماء . فالأرض تبدو في اللوحة أكثر إشراقاً من سواد المساحة الفاصلة بينها وبين زرقة السماء القاتمة . كما أن الفنان استخدم ألواناً داكنة في مواضع متعددة على الأشكال العضوية والتي شملت القدمين واليد والرأس والجسد والجنين من خلال استخدام البني الداكن الذي يقترب من الاحتراق ، بوصفه كتعبيراً عن طبيعة الجنس الذي يتناول العمل وهم الزوج الأمريكيين ، كما أنه يمكن ملاحظة التشابه بين اللونين بصورة قريبة جداً في جسد الأم و الجنين ، ربما قصد (لورانس) بذلك بأن صورة الجنين تحمل اللحم الذي ماتت عليه الأم الممدد جسدها وبين وآخر صورة لها أو مرحلة التي حملت فيه على كاحلها مرحلة الشقاء والتعاسة وحرب لا يطاق لحظة بلحظة.

أما لو نظرنا إلى الأشكال فنجد أن معظمها أشكال عضوية تغلب عليها صفة التبسيط تارة والضخامة تارة أخرى ، وإيجاد الروابط بين علاقات عناصرها بواسطة الألوان ، فعند النظر إلى شكل القدمين الحافيتين المتورمتين تصدمنا بحقيقة حالة البؤس ، وحياة القسوة والترحال والشعور بالهروب من ضياع إلى ضياع التي تتضمنها رحلتها في الحياة . فمن شكل الهالة اللونية يوحي لنا الفنان بأنها تبدو كزهرة بنفسجية متفتحة محاطة بببتلات حمراء اللون ، والتشبيه هنا للزهرة بحكم قربها من أغصان النباتات الخضراء ، وفي أعلى الزهرة يوجد شكل كروي لرأس إنسان أو إنسانة يوحي كأنه فراشة تمتص رحيق زهرة .

ومن حيث الخطوط نجد أن اللوحة تضمنت أنواعاً عديدة من الخطوط من ضمنها خطوط منكسرة في خط الرمال الصحراوية التي أوحى إلى الاضطراب والقلق الذي لازم الهاربين من حياة الشقاء ، وكذلك الخطوط المائلة والمنحنية في أشكال أغصان النباتات ، والأشكال العضوية والتي أعطت دلالة بفقدان التوازن الجسمي ، والتعب النفسي والتوتر،

والقلق الذي صاحب شعور وأحاسيس الكثير من الزنوج حتى لا يقبض عليهم ، كما أن الخط الأفقي الفاصل بين الأرض والسماء ، يعطي إحساس بظهور بواذر أمل بالعودة إلى الأرض الموعودة (شمال أمريكا) التي سوف يشعرون فيها بالأمان والراحة والاستقرار، وبداية حياة جديدة .

المرحلة الثالثة : تحليل المعنى
أ- التحليل الداخلي أو الضمني

لقد تميز (لورانس) بأسلوب فني متميز من خلال اعتماده على أسلوب العناصر القصصية ، فتلك الخاصية يستمدّها الفنان من استعراض سيرة الأبطال القداماء من الزنوج الأمريكيين الذين كان لهم الأثر البالغ في التأثير على المتحررين من قيود الرق ، وتغيير سير نمط حياتهم إلى الأفضل ، فالقصة التي ربما أراد الفنان أن يخبرنا عنها هي قصة (هاريت توبمان) تلك السيدة الممدد جسدها فوق الرمال على اللوحة ، فالفنان يخبرنا عن قصة تلك السيدة منذ مرحلة ولادتها وخروجها من رحم أمها إلى أن كبرت ، وصار قدمها متورمتين من رحلات العذاب التي واجهتها أثناء الانتقال من الجنوب إلى الشمال ، ولتنقل معها مرحلة الذل والهوان إلى مرحلة الكفاح والنضال من أجل الحرية ، ولو كلف ذلك حياتها من خلال الرمز بأداة الموت البندقية ، والتي تمسكها يدها بكل قوتها ، فبعد ذلك الغناء تمت لو تموت بسلام ، وأن يحتويها رحم الأرض الذي يتسع باطنها لكل البشرية جمعاء ، فربما ذلك المكان يعيد لها أمل الحياة في رحم الأم ولتبدأ معها حياة جديدة يملأها السلام والعيش السعيد، وقد رمز الفنان ذلك بغصن الزيتون وهو غصن طري ينمو تبعاً ليستشرف في نموه سلام أبدي بين البشر وطبقاته لتطوي عنهم مرحلة الخوف والخوض في حروب طاحنة فيما بينهم. حرب من أجل الحرية كما هو بين الأغنياء والفقراء، وحرب من أجل الاستقلال كما في الحروب الأهلية والعالمية . وقد عمد (لورانس) على تفعيل التمازج بين العناصر النباتية والعناصر العضوية . حيث يمكن رؤية هذا التكرار المتناغم والمنسجم من الأغصان المشكلة للأوراق الضخمة في أسفل اللوحة ثم تأتي الأقدام ثم عنصر غصن الزيتون ثم الجسد الممدد ،

ب- التحليل الخارجي أو غير الضمني

فبعد النظر إلى الأسلوب الفني الذي انتهجه الفنان (لورانس) نجد أنه يقع ما بين اتجاه الواقعية الواقعية في التصوير ، حيث نرى في اللوحة تصوير الوجوه والأيدي والأقدام والأشكال كما نراها في الحياة ، وما فوق تصوير الواقع في الأساليب السريالية من خلال تصوير (لورانس) لتلك العناصر والأشكال الفنية بصورة مستحيلة بين الرموز التي شكلها ، وبين التعبير في تصوير واقع (توبمان) وحياتها التي عاشتها في الكفاح ، والبندقية ، والموت .

كما يمكن أن نلاحظ أن اللوحة قد حملت بعداً سياسياً في التطرق إلى أوضاع التفرقة العنصرية السائد آنذاك في الولايات المتحدة الأمريكية ، ومدى المعاناة التي واجهت الزوج في محنتهم من قهر وتعاسة وشقاء ، وإبراز مدى أقدام الإنسان على مذلة أخيه الآخر ، ومدى نكران الحق العام للإنسانية جميعاً التي حرمت من العيش بسلام وحياة هائلة .